

صورة الأنا والآخر في رواية (مريم بين النخيل) لمحمد ولد الشيخ

The Image of the Ego and the Other in the Novel (Maryam among the Palm Trees) by Mohamed Ould Cheikh

الأستاذ الدكتور: عبد الله كروم

Prof: Abdellah Kerroum

جامعة أحمد درابعة-أدرار (الجزائر)، kerroum197401@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/05/16

تاريخ القبول: 2024/01/15

تاريخ الاستلام: 2023/05/11

الملخص: يتجلى في رواية (مريم بين النخيل) للروائي الجزائري محمد ولد الشيخ الأغا الصراع الهوياتي بين الزوجين (خديجة المسلمة، وذيبوسي المسيحي) ضمن برنامج سردي في فضاء صحراوي (كولون بشار - صحراء تافيلالت) ملئ بالمغامرات والتحويلات والخيبات والانتصارات وصولاً إلى انتصار الذات على الآخر في مشهد احتفالي، لكن الرواية تضمنت العديد من الصور النمطية سواء أكانت تمثل الأنا المغلوب أم تمثل الآخر المنتصر، الأنا تجلى في الرواية بوصفه متشظياً يبحث عن ذاته السلبية، وبصورة كرسست المعتاد؛ أي بوصفه دونياً ومتخلفاً ووحشياً يمارس الصعلكة والعنف وتعدد الزوجات. أما الآخر فلم تستطع الرواية فضح خطابه وجرائمه بوصفه غازياً ومنتهكاً للأرض؛ بل تناولته بوصفه المنفذ من الفتن، المتحضر، والمتفوق، والإنسان المهيمن..

أحاول في هذه الورقة رصد تمظهرات الأنا والآخر في رواية جزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية، وفي سياق زمني سادت فيه أفكار الاندماج والزواج المختلط والاستعمار...

كلمات مفتاحية: : صورة، الأنا، الآخر، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، الهوية، الكولونيالية، الرواية العربية.

Abstract

In the novel (Maryam among the Palm Trees) by the Algerian novelist Mohamed Ould Cheikh Al-Agha addresses the identity conflict between the spouses (Khadija the Muslim and Dhibousi the Christian) is evident within a narrative program in a Saharan space (Colomb Béchar - Tafilalt Sahara) full of adventures, transformations, disappointments and victories, leading to the victory of the self over the other in a ceremonial scene. Nevertheless, the novel includes many stereotypes, that represent the defeated ego or the victorious other. The ego manifested in the novel as a fragmentation looking for its alienated self, and in a manner that perpetuated the usual; that is, as inferior, backward, and brutal, practicing falsity, violence, and polygamy. As for the other, the novel could not expose his speech and crimes as an invader and violator of the land; rather, the novel dealt with it as the savior from temptation, civilized, superior, and dominant human being. In this paper, I try to spot the manifestations of the ego and the other in an Algerian novel written in the French language, and in a temporal context in which ideas of integration, mixed marriage, and colonialism predominated.

Keywords: Image, the Ego, the Other, Algerian Literature Written in French, Identity, Colonialism, the Arabic Novel

مقدمة

عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في مرحلتها الأولى (التأسيسية) معضلة الاندماج تسويقاً للفكرة الكولونيالية الرامية إلى محو هوية الأمة الجزائرية، وغالباً ما تناولتها من ثيمة (الزواج المختلط) بين المسلمين والفرنسيين. وتندرج رواية (مريم بين النخيل) لمحمد ولد الشيخ (ت1937) ضمن هذه الرؤية التي تصور الصراع بين الأنا /المسلم/العربي/ الأمازيغي؛ والآخر الفرنسي/ الغربي/المسيحي.. من خلال زواج مضطرب بين خديجة المسلمة والضابط الفرنسي نيبوسي واختلافهما حول مستقبل هوية ابنيهما (مريم، وجان حفيظ).

بين صورة الأنا المهددة كينونته بالانسحاق من جهة، وتظاهرات صورة الآخر المهيمن بالقوة والمعرفة من جهة أخرى، أتساءل: هل يمكن أن يندمج الأنا في الآخر؟ ما هي أسباب صراع الأنا مع الآخر؟ أين يتمظهر الأنا، وأين يتجلى الآخر في رواية مريم بين النخيل؟
أولاً: صورة الآخر في الرواية العربية

بالرجوع إلى المعاجم نجد أن مصطلح "الآخر" رجراج يحتاج إلى تدقيق واتفاق دلالي، لأنه مرن ويتوسع ليشمل شحنات دلالية متداخلة في علاقاتها بالأنا أو الذات. في كتاب "مقاييس اللغة" لابن فارس نجد أن معنى الآخر "هو أحد الشئيين، وهو اسم على أفعال (-) وفي قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصْلَبُ﴾ 81- ص 80 والأنثى الأخرى" (بن فارس أحمد، (د.ت)، ص (غير الأول الذي سيعفى عنه، أما الثاني أو 41فتاكل الطير من رأسه) (سورة يوسف، الآية "الآخر" الذي رأى في منامه أنه يحمل على رأسه خبزاً تأكل الطير منه، " فسوف يقتل ويصلب ويعلق على خشبة".

وفي المعجم الوسيط نجد تعريف "الآخر" بأنه أحد الشئيين، ويكونان من جنس واحد قال المتنبي:
ودع كل صوت غير صوتي فإنني * أنا الصالح المحكي والآخر الصدى
فالآخر من جنس الذات كما في بيت المتنبي؛ أي من جنس واحد (الصابوني علي محمد، 2004، ص 584).
حتى يكون المعنى واضحاً فإن تعريف الأنا يظل مرتبطاً بتعريف الآخر المختلف عن الذات، وهو المعنى السطحي القريب (أنيس إبراهيم وآخرون، (2006م)، ص 20، ص 29).

وتكاد تجمع كتب الدراسات المقارنة على صحة انتماء صور الشعوب في آداب الشعوب الأخرى إلى مجالات الأدب المقارن، وهو من أخصب ميادين الأدب المقارن رغم حداثة نشأته، إذ ترجع أقدم البحوث فيه إلى أوائل القرن العشرين؛ لأنه ببساطة من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها رواجاً في

المستقبل (حنون عبد المجيد، 1986م، ص 61- ص 63). كما تتبأ بذلك الدكتور محمد غنيمي هلال رحمه الله (غنيمي هلال محمد، 1962م، ص 419)، ويسمي غي ميشو "guy michau" الذي أشرف على العديد من البحوث حول هذا الفن بـ (علم الصورة) ونسبه للأدب المقارن، وهو نفس الرأي عند كلود بيشوا (claudebichois) واندريه روسو (André rousseau) وكذا سيمون جون (simonjaun) كلهم أكدوا على أن دراسة الصور لصيقة بالأدب المقارن، بل هي فرع حديث منه (حنون عبد المجيد، 1986م، ص 63). ثم تطور ليصبح علماً يُعرف بالصوريات - (Iconologie) التي تعنى بما تحمله الأنا من رؤيا حول الآخر المختلف عن الأنا) - التي تعنى بما تحمله الأنا بوصفها ثقافة ناظرة من رؤى وتمثلات حول الآخر بوصفها الثقافة المنظور إليها.

ظهر علم دراسة الصورة (الصورولوجيا) إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر، حينما سافرت الأدبية الفرنسية الشهيرة (مدام دوستال) إلى ألمانيا، ورسمت صورة مغايرة عن الألماني الذي تتمطت صورته بوصفه مشوها وسيئ السمعة، لتظهره شخصا آخر يحمل قلبا طيبا ومحاسن كثيرة، وسجلت إعجابها بروعة الطبيعة وسحر جمالها في ألمانيا، كما أنها كشفت عن انبهارها بالمستوى الراقي للفلسفة الألمانية (ماجدة حمود، 2000م، ص 109- ص 111). وتكون بذلك قد كسرت تلك الصورة النمطية عن الألماني النازي والمتخم بعرقه الجرمانى الأنقى والأصفى في نظره.

محصلة الرحلة التي قامت بها (مدام دوستال) أثرت في تأليفها كتاباً حمل اسم (ألمانيا) فقط، وعملت فيه على تصحيح الصورة النمطية السائدة عند الفرنسيين عن الألمان وسلوكهم، لتكسر تلك الصورة السلبية وتبني صورة جديدة إيجابية، وقد اعتبر بعض الدارسين هذا الكتاب بمثابة الانطلاقة الجادة لما يعرف بالدراسة الأدبية للصورة (المرجع نفسه، ص 110- ص 111).

إن الصورة الأدبية هي من جملة فروع الدراسات المقارنة، حيث تساعد على إبراز الأنماط السلوكية في المجتمعات المختلفة بما فيها تلك الخاصة بها، بوصفها تعبيراً أدبياً يوحى إلى نظامين مختلفين بحمولتهما الثقافية، وإلى مكانين مختلفين، لتكون الصورة قسماً مرحلاً من المخيال الشعبي، وبنية الثقافة، ومنه تتأسس كل صورة على وعي الأنا مقابل الآخر.

ومنه فإن الذات تتأسس وبعاد تأسيسها في صراعها مع الآخر، ولأجل ذلك يصحب أي تشويه للآخر تشوها كامناً في الذات، وعلى العكس عندما تبادر الذات بالاعتراف بالآخر وخصوصياته وقبوله واندماجه فإن المآل هو التناغم والانسجام في طبيعة الذات قبل الآخر.

ثانياً: عوامل الصراع الحضاري بين الغرب والعرب

- لقد أسهمت عوامل كثيرة تاريخية واجتماعية وعقدية في احتدام الصراع بين الشرق والغرب، أو بين الإسلام والحضارة الأوروبية، بالنظر لتضارب المصالح والأفكار واختلاف الأنساق الثقافية والاجتماعية، ومن أوضح العوامل التي أوجبت الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي:
- الاختلاف العقدي والفكري القائم على اعتبار الآخر كافراً من أهل النار ومن غير المؤمنين، ولاسيما الديانة المسيحية واليهودية اللتان لا تؤمنان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
 - الحروب الصليبية التي شنها الأوروبيون (الإفرنجية) على العرب إذ بلغت تسع حملات صليبية.
 - المؤسسة الاستشراقية (الاستشراق) (Orientalisme): مؤسسة علمية وبحثية غربية قامت على اكتشاف التراث الشرقي وترجمته وقراءته وفق منهج علمي، وهم مختلفون ما بين معتدل ومتساهل ومتطرف. التي حملت مشروعاً عدائياً احتقارياً، ولها نظرة دونية لحضارة العرب، ولاسيما الفئة المرتبطة بالمشروع الغربي القائم على الهيمنة وسيادة الرجل الأبيض.
 - الاستعمار العسكري والاقتصادي القائم على احتلال الأراضي العربية والشرقية والدول النامية، واستغلال مواردها الباطنية، وكذا الممارسات الإجرامية في التقتيل والتشريد والتعذيب.
 - قيام حركات التحرر بمحاربة المستعمرين وطردهم وتكبدتهم خسائر في الأرواح والأجساد والعتاد.
 - استمرار الصورة النمطية حول الشرقي والمسلم بكل أشكال التعبير والصاق التهمة بالعرب والمسلمين بوصفهم إرهابيين وتصوير رعب الإسلام أو ما يعرف بالإسلاموفوبيا.
 - التفوق الحضاري والعسكري والعلمي والتكنولوجي للغرب وانبهار بعض العرب به.
 - الانحطاط الحضاري للعرب و بروز الأزمة الأخلاقية في الغرب، وتفوق العرب روحاً ووجداناً.
 - وجود أخطاء وفظائع ارتكبت في عصر الفتوحات الإسلامية تصور همجية بعض الجنود كالصورة المرسومة عن التركي في الذاكرة الأوروبية (تصور بعض الأفلام الأوروبية قسوة التركي في التاريخ، وأنه كان ينزع الأطفال من حضن الأمهات، ويعمد إلى قتلهم ثم يتزوج أمهاتهم بعد قتل آبائهم). من قتل للأطفال واعتداء على النساء.
- لقد أسهمت هذه العوامل وغيرها في تأجيج الصراع بين الشرق والغرب، وتباين موقفهما من وجود الآخر، وكلما دعا العقلاء لإيجاد حلول وآليات للتفاهم والحوار وتقريب الفجوات بين الطرفين كلما فاجأت الجميع أحداث وتوترات ذرت الملح على الجراحات، ونكأت الجراحات الجديدة جروحا قديمة وتوسعت الهوة بين الندين.

لإيجاد حل لمسألة التوتر بين الأنا والآخر حري بالشعوب جميعاً إقامة موافقات بين مصالحها الذاتية على أساس الاعتراف وتوفير شروط التفاهم والنقاش، وتنقية أفكار الهيمنة والأنا المتضخمة (حرب علي، 2000م، ص 200).

ثالثاً: أنواع الصور والتمثلات في روايات الأنا والآخر

قسم الدكتور جميل حمداوي أنواع الصور المجسدة في الروايات العربية إلى أربعة أنواع وهي:

1- الرؤية الانبهارية.

2- الرؤية الحضارية.

3- الرؤية العدوانية.

4- الرؤية الحقوقية والسياسية.

تتميز الرواية العربية منذ أن شقت مسيرتها الإبداعية في الأدب العربي إبان القرن التاسع عشر ولاسيما أواسطه؛ أنها خصت قضية الأنا والآخر بتجسيديات عبر جملة من التمثلات المتقابلة سواء أكانت عدوانية أم متماهية وذاتية في صورة الآخر، إذ صورت ثنائية الشرق والغرب، وثنائية المركزية الجنسية المختلفة بين شرق ذكوري وغرب نسائي، كما درست مسألة التقدم والتأخر، وثنائية الجهل والعلم، ونوازع المادة وجاذب الروح، وبالعودة إلى أنماط الرؤى التي جعل منها مركز الرؤية وحجر الزاوية. أما النماذج عن كل نوع فهي كما يلي:

1/ **الرؤية الانبهارية:** ويعنى بها ذلك الانبهار والإعجاب بالآخر، الذي أخذ بأسباب التقدم والتطور حتى تفوق وساد وأنجز مدنية حديثة أبهرت الرعيل الأول من العرب الذين سافروا وتلقوا الصدمة الأولى (حمداوي جميل، 2020م، ص 09).

حيث تم اكتشاف الهوة الكبيرة بين غرب متقدم تكنولوجيا وشرق متخلف ثقافياً وعسكرياً وحضارياً، فأصيبوا بالدهشة والإعجاب بالغرب حد الافتتان، "وقد تكون تلك النظرة في البداية فطرية ساذجة أو نظرة واعية نسبياً، بالفوارق الموجودة بين الشرق والغرب أو بين المكان الأصل ومكان الغرب والجذب والافتتان (المرجع نفسه، ص 02).

ومن النصوص الروائية السردية العربية التي صورت العلاقة بين الشرق والغرب بصورة انبهارية مندهشة رواية (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) لرفاعة الطهطاوي (1834م)، وهي خلاصة رحلته إلى فرنسا لمرافقة البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي باشا، وكان شيخاً أزهرياً معمماً، وعلى ذلك يلحظ الدارس بعض مظهر الافتتان بالحضارة الأوروبية في بعض تفاصيل الكتاب.

وكذا رحلة خير الدين التونسي الموسومة بـ "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" سنة 1876م، وقد تقصد أن يذكر الوسائل التي أوصلت أوروبا إلى الهيمنة والمتعة، وحاول أن يتخير ((منها ما يكون بحالنا لائقاً، ولنصوص شريعتنا سعيداً وموافقاً)) (عصفور جابر، 2011م، ص 34).

ومن النصوص التي عكست الرؤية الانبهارية ما كتبه أحمد فارس الشدياق (1888م) في كتابه ((كشف المخبأ عن فنون أوروبا)) وذلك سنة 1863م، ونص أمين فكري (ت1899م) في كتابه "إرشاد الألباب إلى محاسن أوروبا" سنة 1892م/ مروراً بما كتبه علي أمبارك (1823-1893م) من محاورات حول "علم الدين" سنة 1882م، إضافة إلى الرحلة الباريسية التي كتبها محمد المويلحي بعنوان "حديث عيسى ابن هشام" وإذا كان بعض هؤلاء الروائيين، وأغلبهم دافع عن حضارة العرب، فإن أنطوان فرح في روايته "الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث" قد انبهر بالحضارة الغربية انبهاراً جعله يرجح تقدم أوربا على كل إرث ثقافي وحضاري وقيمي للحضارة العربية (حمداوي جميل، 2020م، ص 02- ص 03).

2/ الرؤية الحضارية

حاول بعض المثقفين المبدعين العرب دراسة الأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين والعرب وتقدم الغرب، وقدموا في ذلك عدة تصورات وآراء ترمي إلى كشف موازين الاختلالات والدواعي التي قضت بتخلف الشرق حضارياً وتقدم الغرب، وطرح الأمير شكيب أرسلان سؤاله في كتابه الشهير "لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم"، وحاول أن يقدم الأسباب الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أوردت الشرق مدارك التخلف.

لقد قامت حركة الاستنارة العربية بعملية انفتاح واع قائم على الوعي المدني المحدث الذي يدرك أسباب التباين بين الأنا والآخر، واستبدلوا عزلة الطلائع الأولى بالانفتاح على الآخر لكشف مواطن القوة والضعف، وإبراز الإيجابيات والسلبيات ومن ثم ضرورة التمييز بين الآخر الصديق، والآخر العدو، والآخر المستعمر، والآخر الذي يمكن أن يكون ناقلاً للمعرفة والتقدم. (عصفور جابر، 2011م، ص 32).

حيث تشكل كل ثنائية صراعاً مبطناً، كما أنها تؤلف في الوقت ذاته موقفاً أو تفاعلاً حضارياً مسائراً للموقف الذي يليها، مصوراً الخيبة النفسية الداخلية وضياح الاتساق والانسجام، وطغيان اللا توافق الفكري والاجتماعي، ومحاولة تبرير ذلك أحياناً بعدم التناسب على مستوى المرجعية التاريخية، وأحياناً بانعدام التناغم مع الآخر على مستوى الفكر والتوجه المستقبلي الذي يجب الاقتداء فيه بالآخر بوصفه صالحاً وحاضناً ومتفوقاً، والذي يبدو غير متناسق تماماً كبنية وكروية استشرافية، وهو كذلك غامض في ملامحه ومواقفه وتصورات (عباس إبراهيم، 2006م، ص 65).

الرواية بطبعها تجسد الواقع والمتخيل الناتج عن البناء الفكري والإيديولوجي للروائي، فهو يصنع رؤاه وأفكاره من خلال تشابك وتصارع الشخصيات؛ لأن الرواية ليست تجسيدا للواقع فحسب، ولكنها فوق ذلك موقف من هذا الواقع، وهذا الموقف لا يمكنه أن يتخذ إلا بإعادة إنتاج هذا الصراع الواقعي والإيديولوجي في النص (المرجع نفسه، ص 66).

والمقصود من كل هذا أن كثيراً من المثقفين العرب في فترة البدايات الأولى للقرن العشرين وقعوا في الدهشة، وكما يقولون: "كل قادم دهشة"، هذه الدهشة التي قد تولد الفلسفة كما قال أرسطو "ربما الدهشة أول باعث على الفلسفة" (محمد عويس أحمد، 2005م، ص 64)، وما الفلسفة إلا فن طرح السؤال والتساؤل وعدم التسليم للحقائق، ولكن طرحها على بساط الفكر والمناقشة والمحاورة والجدل، وهذا ما قام به هؤلاء. بعدما ذهبت الصدمة الأولى، والتي اعتبروا فيها الغرب رمزاً للحرية والعلم، وانساقوا وراء الغواية والافتتان بالغرب متأثرين بنزوات وأهواء شعورية ولاشعورية، ولكنهم بعدما استوعبوا الصدمة الأولى واستيقظوا من مفعولها المخدر، كشفوا قناع الحداثة وعورها وطغيان المادية المتوحشة والأنا المتضخمة، وأدركوا أن لكل بيئة مقوماتها الخاصة، فالشرق شرق والغرب غرب، ولكل خصائصه وسياقاته التاريخية والاجتماعية. (حمادوي جميل، 2020م، ص 02- ص 03- ص 04).

ومن الروايات العربية التي صورت بشكل واضح ثنائية الأنا والآخر برؤية حضارية رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطبيب صالح، ورواية "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس، ورواية "الأيام" لطف حسين، و"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، ورواية "قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، وروايات "الغربة، اليتيم، الفريق" للكاتب المغربي عبد الله العروي.

وروايات الأستاذ العروي تبرز عمق الصراع بين الأنا والآخر، وإعطاء مختلف الأبعاد المشكلة للظاهرة وأسبابها المعقدة والمركبة إذ نجد في رواية الغربة تصوير لقضية الأنا المأزومة وموقفه من الآخر. فموقف البطل (إدريس) من تلك القضايا المتصلة بقضايا وأفكار كبيرة مكونة من الخيبة وأسبابها، وكل الشخصيات تنطلق من سياقات وأبعاد سوسيو تاريخية تفسر المواقف حسب المنابع الحضارية المختلفة الأنا (المغربي)، والآخر (الغربي)، (عباس إبراهيم، 2006م، ص 66).

ويظهر البطل (عمر) كذات مأزومة متأثرة بأستاذه (بوليوس)، وقد اقتنع بفكرة عدم مناهضة الاستعمار وعملائه، وتشرب من أستاذه مبادئ تقول إن جوهر مسألة "الصراع" هو التشبث بالعقيدة، وإعراض عن الحياة والمغريات والملاذات (المرجع نفسه، ص 68)، وليس موقفاً نابعاً من تجرد علمي.

كما توجد شخصيات داخل روايات عبد الله العروي، تصور مأساة الغربي ومشكلاته اليومية والمتمثلة أساساً في ضيق المدينة، وإفرازات مادية، وتشظي الشخصية، وظهور أمراض القهر، والقلق، والاضطرابات النفسية.

هذه النصوص وغيرها تصور العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب، بمعنى الرواية الحضارية، تجسد تلك العلاقات بين الأنا (العربي، المسلم، الشرقي) وبين الآخر (الأوروبي، المسيحي، الغربي)، وترصد التلاحق الفكري والحضاري بين الطرفين تخیلاً وإبداعاً ومشهداً. وذلك على مستوى العادات والتقاليد والأعراف والأديان والمعطيات الثقافية والمادية والأدبية والتقنية.

3/ الرؤية العدوانية

تتكئ الرؤية العدوانية على وصف الغير أو الآخر بأنه مخالف وند للأنا أو الذات، ومن ذلك فإن الآخر يحاول تذويب الذات وممارسة المسخ الثقافي والفسخ الفكري، وبالتالي إقصاء وتهميش الأنا بل محوه مما يولد المقاومة والحقد والعدوان ضد الآخر الذي يتوصل إلى كابوس يلاحق الذات ويتآمر عليها ويسخر كل إمكاناته من أجل الهيمنة وسياسة الإلحاق والتبعية.

وعليه، فالعلاقة -حسب هذا التوجه- بين الأنا والآخر تكون دائماً متوترة سلبية لا تسودها المحبة والأخوة والصداقة والتعايش، وإنما هي علاقة سلبية مؤسسة على الصراع المستمر والعداوة التاريخية، كما هي في روايات فدوى طوقان مثل رواية "الرحلة الأصعب"، ورواية "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني، ورواية "أمواج البحر" للكاتب المغربي مصطفى شعبان، والروايات الجزائرية التي صورت المستعمر مثل "الأرض والدم" لمولود فرعون، "الحريق" لمحمد ديب، ورواية "نجمة" لكاتب ياسين، ورواية "الريوة المنسية" لمولود معمر، ولاسيما صورة الفرنسي في الدول المغاربية (حنون عبد المجيد، 1986م، ص 309- ص 310).

في رواية "الحريق" لمحمد ديب نجد البطل "حميد سراج"، وهو مثقف جزائري يعمل على مناهضة الاستعمار في مدينة الجزائر، وبينما هو يسير ليلاً يجد مجموعة من الفرنسيين يتقاذفون جثة طفل جزائري ويلعبون بها مثل الكرة، لأنهم يريدون تنظيف البلد من العرب الذين يعتبرونهم كالقمامة، بدءاً بجثة طفل برئ، أما في الريف فهم ينتزعون الأراضي ويقتلون الأهالي، إما بالرصاص أو بالتجويع؛ لأن الأهالي مذنبون جميعاً في نظرهم، وهم يستحقون الطرد والتعذيب والاعتقال.

وفي رواية "وصيف الأزهار لا يجيب" للروائي مالك حداد وصف للفرنسيين بأنهم حمقى، ويوم خروجهم هو يوم ربيعي جميل، وأنهم حمقى سيتركون المنازل نظيفة ويرحلون غير مأسوف عليهم. (المرجع نفسه، 312).

وتحمل هذه الرؤية العدوانية في طياتها رؤية سلبية مبنية على الصراع الجدلي والعدوان الوجودي والكيونوني والحضاري والديني بين الذات والآخر، وهي مبنية على المفاضلة والمفارقة والتوتر وعدم وجود آليات ووسائل للتقارب والتآخي.

4/ الرؤية السياسية والحقوقية

والمقصود بالرؤية السياسية والحقوقية تلك النظرة القائمة على تصوير الأنظمة المستبدة وعلاقاتها بشعوبها ومشكلات الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الطفل وحقوق المرأة ومسألة الحريات الفردية والحريات العامة.

هنالك مجموعة من الروايات العربية ركزت في الصراع بين الأنا والآخر على الزاوية السياسية، فاعتبرت الغرب مهد الحرية الحقيقية، ومنتفساً للديمقراطية، وحصناً أميناً للحريات، وملجأً للمقهورين والفارين من الاستبداد العربي. ومن ذلك رواية (أصابع لوليتا) لواسيني الأعرج.

ومن صورها: أن البطلة ماري لا تزال تحتفظ برأيها ضد الآخر، فهي تكشف سرا مبطناً لديفيد، وأن والد يونس مارينا حمل السلاح ضد فرنسا وهم يحمونه اليوم. غير أن دافيد خالفها الرأي ثانية على أن والد يونس مارينا استعمل سلاحه للدفاع عن أرضه (الأعرج واسيني، 2012م)، ص 137). فهذا النقاش بين ديفيد ومساعدته ماري كان قائماً حول التطرف والعنصرية ضد الآخر.

أما الحكومة الفرنسية من رؤساء ووزراء، فإنه كلما تأزمت الأوضاع فرضت العنصرية نفسها كحل لكل المشكلات، إذ يستيقظ الشعب كل صباح على رئيس حكومة أوزير يرفع عالياً كذبة الأجنبي، كما تقوم الحكومة بزرع الحقد في قلب المواطن الفرنسي اتجاه الشعوب الأخرى، كما أدلت بتصريحات وزير الداخلية الفرنسية بأن فرنسا للفرنسيين" (المرجع نفسه، ص 140- ص 141- ص 142).

فهو بذلك يفتح المجال للمتطرفين وهنا يكمن الخطر؛ إذ تصبح العنصرية واللاسامية حديثاً مبتدلاً، وهذا ما طبق في الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي الذي ترأس الحملة الصليبية ضد الجزائريين، محاولاً بذلك القضاء على الهوية الجزائرية من خلال محوها.

ويونس مارينا كان يرفض العنصرية التي كانت ولا تزال إلى يومنا هذا في بعض الدول الغربية، فما كان يحدث من اعتداءات على المواطنين الفرنسيين كان ينسب إلى الإرهاب وأي إرهاب، فأصابع الاتهام كانت موجهة للعرب والمسلمين بشكل خاص؛ لأن مارينا كان يرفض هذا التمييز، فمن المعلوم أن نظرتة إلى الشعوب سواء أكانوا من الغربيين أم من العرب واحدة فهو لا يفرق بين الأديان. (المرجع نفسه، ص 256).

فيونس مارينا ينكر بشدة هذه العنصرية ويرفضها، بحكم أنه لا يفرق بين الشعوب سواء العربية أو الغربية أو الإفريقية أو المسلمة، وهذا ما يبدو واضحاً من خلال علاقة مارينا بالفرنسيين فقد وجد المساعدة منهم فكانت التواصلية والتعايش.

ويونس مارينا من تجاربه التي فرضت عليه الاتصال مع الفرنسي، ورواياته هي الوسيلة التي بنت الجسر الواصل بينه وبين المواطن الفرنسي، فقد لقيت أعماله شعبية كبيرة وخلفت قراء عديدين له، مما وطد علاقته بهم، إذ خلق مارينا لنفسه علاقات كثيرة حتى مع الموظفين البسطاء الذين لم ييخلوا عليه ومدوا له يد العون. (الأعرج واسيني، 2012م)، ص 24- ص 25).

رابعاً: جواذب الأنا وإكراهات الآخر في رواية مريم بين النخيل

في رواية ((مريم بين النخيل)) لمحمد ولد الشيخ آغا نلمس فيها الكثير من التظاهرات للأنا والآخر وبشكل مختلف ومنها :

1- استقلالية الشخصية لدى الأنا والآخر

ومثل هذا الدور خديجة المسلمة والضابط ليون ذيبوسي، حيث التزم كل منهما بشخصيته وحاول التمسك بها، وعدم قبول الذوبان في الآخر، كما مثلها سي مسعود معلم العربية والضابط الروسي إيفان إيبانوف الخطيب الأول لمريم.

1- خديجة: التي رغم زواجها من ضابط فرنسي إلا أنها ظلت متمسكة بدينها حيث ترتدي اللباس المحتشم، وتقوم بكل واجباتها الدينية بكل حب وحماسة. (ولد الشيخ آغا محمد، 2020م)، ص 20). وحاولت أن تربي أبنائها على الطريقة الإسلامية، محاولة ربطهم بالمسجد وإقامة الشعائر الدينية الخاصة بالمسلمين [الصلاة، قراءة القرآن، الختان].

2- الضابط ذيبوسي: الذي رفض أن يربي أبنائه تربية إسلامية، واقترح تربيتهم تربية عصرية، لاهي إسلامية ولا هي مسيحية، وكان يحرص على ربطهم بالحدثة والعصرية، وكره الضابط ذيبوسي لزوجته أن تكثر الكلام بالعربية مع ولديه مريم وحفيظ، وحذر من أن تعددهما على عادات أسلافها، كما أنه لم يتقبل مرافقة زوجته خديجة لولديه لزيارة ضريح الولي الصالح.

2- اضطراب الهوية وتمزق الأنا

وهذا نجده في الولدين مريم وأخيها جون حفيظ، وكان محل تجاذب بين الوالدين (خديجة وذيبوسي)، ولذلك جاءت شخصيتهما مضطربة. فالولد الأول تجاذب الوالدان عليه، فسماه أبوه جون وسمته أمه حفيظاً، فجاء اسمه مركباً بين ثقافتين وعرف بهذا الاسم (جون حفيظ)، ومع ميلاد الولد الثاني فقد لجأ إلى اسم مشترك بين الثقافتين وهو "مريم"، حيث "مريم" شخصية محترمة في الديانتين (الإسلام والمسيحية).

لكن بعد مرور ثمان سنوات لم يكن حفيظ مختوناً حتى تحاليت أمه على أبيه، واستغلت غيابه لتختنه في ذلك السن، أما مريم فقد بدأت شخصيتها مضطربة وغير منسجمة مع رؤية أمها، واتضح أنها مالت لأبيها في بداية حياتها، ولذلك اختارت هواية الطيران، وخطبها الروسي إيفان إيبانوف، وكانت أمها خائفة على مصير ابنتها.

وبعد وفاة أبيها الضابط ذيبوسي أقنعتها أمها بضرورة تعلم العربية مع المعلم سي أحمد مسعود، ولكنها ظلت متمسكة بهواية الطيران ومزاحمة الرجال في كثير من المواقع ومنها السفر والتنزه.

أما جون حفيظ فقد اختار المغامرة والزواج من غربية في البداية حتى سقط في الأسر في أرفود جنوب المغرب.

3- الأنا وعقدة الذنب

بعد وفاة زوج خديجة شعرت بالذنب الذي ارتكبته عندما ارتبطت بذيبوسي وأنجبت منه ولدين مريم وجون حفيظ، وأحست بالذنب، مما جعلها تذهب لأحد شيوخ الجامع وتعلن أمامه توبتها وحزنها، وتطلب منه طريقة للتكفير عن ذنبها، فنصحها بضرورة تعليم ابنها القرآن وقال لها: ((حَقَّظِي كلمة الله لولديك)).

عقدة الذنب لدى خديجة جعلتها تسعى من أجل تعليم ولديها اللغة العربية والقرآن، والأكثر من ذلك أن تسعى من أجل أن تتزوج خديجة بمعلمها وأن يبتعد ابنها عن زوجة غربية.

4- الآخر وعقدة التفوق

معاملة ذيبوسي لخديجة المسلمة يظهر ذلك الوجه الغربي الذي يعكس سيادة الرجل الأبيض وعقدة التفوق والأفضلية، وكان يعامل زوجته معاملة الرقيق، وهذا ما نجده في الراوية:

((أه تصرخ خديجة، إنك تعاملني كالرقيقة.. موقفك واضح.. أنا عندك مجرد تمضية وقت، قلتها لي مرات عديدة...))

زوجته مجرد أمة ويمضي بها الوقت، وجعل خديجة تصرخ في وجه ذيبوسي ((أنا لا أفهم احتقارك ولا مبالاة بعد عشر سنوات زواج)). (المرجع السابق، ص22). (ولد الشيخ آغا محمد، (2020م)، ص21).

وهذا ما جعل الحسرة تملأ قلب خديجة وتصرح ((آه لو كان هذا الكلام [التذكير بالعشرة وحسنها والحب] موجهاً لرجل من بني جلدتي، كم كانت البهجة تغمره والاعتراف مرسوماً على محياه)).

عندما طلبت خديجة من زوجها أن يسمح لولديهما تعلم القرآن، هز كتفيه وقال لها ((لا يمكن أن أُلقي بولدي في تعصب ديني؛ لن أعلمهما لا الكتاب المقدس ولا القرآن)). (ولد الشيخ آغا محمد، (2020م)، ص21).

5- الأنا والاستلاب

يستلَب السارد ويتمظهر في النص بوصفه يروج لآراء الآخر المستعمر، ويصل الأمر لدرجة تمجيد الاستعمار. حيث وصف السارد منطقة بشار أنها كانت ((قبل ثلاثين سنة كانت تسمى «تقدي» لم تكن إلاً مخبأً للصووص الصحراء؛ كان الخراب والدمار يسودان في المنطقة))، (ولد الشيخ آغا محمد، (2020م)، ص 51).

ويعتبر السارد أن مجيء الفرنسيين للصحراء نشر الأمن ومنع الظلم. ونشر الهناء والأمن بعدما عمها الخوف والرعب من السراق والعصابات التي كانت تحكم الصحارى (المرجع نفسه، ص51)، واعتبر دخول الفرنسيين فاتحا لعهد جديد ما كان من السطو والسرقة والاستعباد، والأكثر من ذلك وصف فرنسا بالنبل والعدالة: ((وصول الجنود الفرنسيين في نوفمبر 1903م تحت قيادة العقيد ببيرون "Pierron" لم تعلن دماراً آخر واضطهاداً جديداً بل بالعكس فتحت عهداً للعدالة والسلام والازدهار للسكان المندھشين، بإبلاغهم من الآن وصاعداً أنهم يمكنهم مزاوله نشاطاتهم دون خشية السرقة والغارات والعبودية، وأن فرنسا النبيلة والعادلة ستضع حداً لكل تجاوزات الطغاة السالفة))، (محمد ولد الشيخ، ص51).

ويرد السارد مقالة الفرنسيين أن مجيئهم للجزائر إنما حدث من أجل التمدين ونقل الحضارة لهم فيقول: ((لقد جلبوا للمنطقة الحضارة المعاصرة التجارة والثراء))، وبارك احتلالهم وبسط سيطرتهم على المناطق الصحراوية : ((مباركة الهيمنة الفرنسية التي أنقذتهم من الطغاة))، (المرجع نفسه، ص75).

ومن الصور التي تؤكد استلاب شخصية السارد واندماجه في الآخر أنه كان ينسب السلوكات الجميلة والمتحضرة للبطل مريم لفرنسا فقط، رغم أنها نتاج ثقافتين مختلفتين، لكن النص أرجع سلوكات مريم الجميلة إلى الأرومة الفرنسية، حيث أن مريم هي ليست سوى: ((فرنسية قحة متعلمة ومتقفة))، (المرجع نفسه، ص28).

وعندما منحت مريم فاطمة البدرية الصغيرة بعض المال صدقة وصف المشهد بقوله: ((ترفع فاطمة الصغيرة عينيها السوداوين الجميلتين الحزنتين والحلوتين نحو الفرنسية السخية))، (المرجع نفسه، ص55).

6- ترويج الصور النمطية عن العربي من قبل السارد

- حاول النص إعطاء صورة نمطية عن العربي والأمازيغي والقصوري في صورة الجاهل والذي يجعله متقوقعاً، وهو موقف حسب السارد جعله حاجزاً ضد التطور ومكنه من التخلف، لدرجة أنهم ينفرون من الأجانب ويتحاشون العيش معهم .

- ويقدم الروائي في نصه صورة عن وحشية الشلح (الأمازيغ) والعرب، تماماً كتلك الصورة التي يقدمها الغزي عنهم، فيقول: ((فقد كانوا يعيشون بحرية حياة الرعاة ومحاربين وسراق))، (المرجع نفسه، ص72).

ويضيف إلى الحروب والرعي صورة القراصنة وقطع الطريق وفرض الضرائب والرسوم، كأنهم قراصنة وقاطعو طريق لا يحكمهم قانون ولا أخلاق، بينما ينسى المحتل الذي جاء ليسرق وطناً وثرواته وخبراته، فيقول: ((فالبربر والمغاربة كانوا يجبرون أصحاب القوافل على دفع الرسوم)). (المرجع نفسه، ص 72).

- تصوير بلقاسم القائد البربري بوصفه فاشلاً وطاغية ومتسلطاً والقاتل والوحشي وما ذلك، بينما الفرنسيون ((لهم كل الاعتراف والتقدير)). (المرجع السابق، ص 76).

6- الأنا والاعتراف بالآخر

في توجيهات الأم خديجة لابنتها مريم فإنها توجه لها جملة من النصائح والتوجيهات، حيث وجهتها للسلوك القويم، والاعتناء بالنفس، وإتاحة فرصة للآخر فقالت: ((العيش هو محبة الآخر، التنفيس عن المكروبين، والتصدق على المساكين)). (ولد الشيخ آغا محمد، (2020م)، ص 29).

ومما يوضح الاعتراف بالآخر في هذه الرواية، وسلوك خديجة وابنتها مع حالة فقد الوالد ذيبيوسي، ورغم مسيحيته وغربيته الواضحة إلا أن الالتزام الخلقي فرض عليهما الزيارة بانتظام لقبره ووضع أكاليل الزهور على قبره، رغم أنه مات في معركة ضد الأنا في جنوب المغرب.

((منذ تحويل رماد جثة النقيب «ذيبيوسي» إلى وهران، أصبحت مريم ووالدتها تزوران المقبرة من حين لآخر لوضع أكاليل الورد على ضريح فقيدهما العزيز، وإحياء طقوس المآثر والذكريات)). (المرجع نفسه، ص 29).

7- التعايش المشترك في تافيلالت

ومن الصور الجميلة في الرواية إبراز قيم التسامح والتعايش المشترك الذي كان يسود مناطق الصحراء في مثل قول السارد: ((يهود تافيلالت يسكنون لوحدهم في « الملاحات» لهم كنائسهم ومحلاتهم التجارية داخل السوق)). (المرجع نفسه، ص 79). وكذا تصويره وضع اليهود في صحراء تافيلالت: ((كان اليهود يتمتعون بالاحترام ويعيشون في الأمان في عهد الأمراء الفلاليين وحلفاء سلطان الغرب)). (المرجع نفسه، ص 80).

كما رسم الروائي صورة جميلة للتعايش والانسجام بين مختلف مكونات مجتمع الصحراء المتعدد عرقاً وديناً، فيقول: ((بالرغم من أن الشلح لا يتقاهمون مع القصوريين واليهود إلا أنهم لا يمكنهم الاستغناء عنهم لهذا نجدهم متحدين مع القصوريين واليهود والبدو، حيث في الواحة لا يستغني أحد عن أحد)). (المرجع نفسه، ص 67).

واحة تافيلالت بدت أنها تستضيف الجميع، وترحب بالزائر أياً كان، وتعمل على تنظيم الظواهر حتى تلك التي تحمل انحرافاً وأخلاقاً هابطة. (المرجع نفسه، ص70)، ولم ينزعج السارد من آذان الفجر وأدعيته، بل اعتبرها أصوات محببة، إذ أنها ((أصوات المؤننين الشجية وابتهالاتهم وهي تتادي لصلاة الفجر)). (المرجع نفسه، ص65).

ومظاهر العيش المشترك تعكس الطبيعة المسالمة لأهل الصحراء، وتؤكد قبولهم للآخر، أما الصورة السئة للبطل بلقاسم فهي صورة الشرير الذي لا يقبل به المواطن الصحراوي في حد ذاته، لكن غياب السلطة والقوة هو الذي سمح لبروز الانحراف وقانون الغاب.

خاتمة

نستخلص في نهاية البحث أن أدب الصورلوجيا مرتبط بتشكيل متراكم ونام لتقافة شعب عن شعب آخر، وأنها من الصعوبة محوها وتجاوزها، لأنها تترسب في البنية الثقافية والتصورات العامة، وخاصة إذا كانت لها جذور تاريخية كتلك التي بين العرب والغرب، وما بينهما من دماء وحروب وصراع حضاري لفرض الرؤية والهيمنة والسيادة.

تناول العديد من الروائيين العرب ثنائية الغرب والعرب بروى مختلفة، بعضها انبھاري خاصة في بدايات عصر النهضة، وبعضها عدائي خاصة الأدب المقاوم الذي يرى في الغرب محتلاً وغازياً، وبعضها ذات منحى حقوقي سياسي، وبعضها لها مقاربة حضارية.

في رواية مريم بين النخيل تعددت صورة الأنا وصورة الآخر، وجاءت متنوعة ومتداخلة وحتى متناقضة أحياناً، لأنها تعبر عن واقع وسياق تاريخي عاشه المجتمع الجزائري، لاسيما في صحراء لم ترتسم بعد انتماءاتها الوطنية، ومن جهة أخرى وتوضح مدى الخدعة التي انطلت حتى على المثقف الذي حاول التسويق لأفكار الاستعمار بترويج أفكار الاندماج والزواج المختلط، رغم محاولات إثبات حالات التنافي والعقبات الاجتماعية التي تحول دون تحقيق اندماج الأنا في الآخر.

قائمة المراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

المؤلفات:

- 01- الأعرج واسيني، (2012م)، أصابع لوليتا، ط1، دار الصدى، الجزائر.
- 02- أنيس إبراهيم وآخرون، (2006م)، المعجم الوسيط، ج1، دار صادر، بيروت- لبنان.
- 03- بن فارس أحمد، (د.ت) مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت- لبنان.

- 04- حرب على، (2000م)، حديث النهايات، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب.
- 05- حمداوي جميل، (2020م)، صورة الآخر في الخطاب الروائي العربي - مقارنة صورولوجية، ط1، دار الريف، المغرب.
- 06- حمود ماجدة، (2000م)، مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، مصر.
- 07- حنون عبد المجيد، (1986م)، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 08- الصابوني محمد علي، (2004م)، التفسير الواضح الميسر، ط5، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان.
- 09- عباس إبراهيم، (2014م)، الرواية المغاربية، دار كوكب العلوم، الجزائر.
- 10- عصفور جابر، (2011م)، الرواية والاستتارة، كتاب دبي الثقافي، ط1، دار الصدى، دبي - الإمارات العربية المتحدة.
- 11- غنيمي هلال محمد، (1962م)، الأدب المقارن، ط2، المطبعة الأنقلو مصرية، القاهرة - مصر.
- 12- محمد عويس أحمد، (2005م)، الانزياح عن منظور الدراسات الأسلوبية، ط1، مجد للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- 13- محمد ولد الشيخ آغا، (2020م)، رواية مريم بين النخيل، دار يوتوبيا، تيارت - الجزائر.